

الثلاثون الزاهدون

لِلنَّيَّاسُوفِ الرَّؤْيَى " لِيُؤْتُوا لَسْتَوَى "
قَالَ السَّيِّدُ فَرِي شَهَابِ السَّعِيَّةِ هَيْتَ

وأنحنوا له ، فقال الأسقف :
— لا تزعموا أنفسكم أيها الأصدقاء
فما جئت لأكون سبب ذلك لكم ؛ إنما
جئت كي أستمع ما كان يقوله هذا
الرجل الطيب

فأجابه أشجع الواقفين وكان تاجراً :

— إنه كان يقص علينا نبأ « الزاهدين » ١
— وأى الزاهدين عنيث ؟
قال ذلك وذهب إلى جانب السفينة وأخذ مجلسه
على صندوق كان هناك
ثم قال :

— خبروني عنهم . أحب أن أعرف خبرهم
وإلى مَ كنتم تشيرون ؟
فأجابه الرجل :

— أترى تلك الجزيرة الصغيرة هناك ؟
— وأشار بيده ذات اليمين — إنها الجزيرة التي
يعيش فيها أولئك الزاهدون الذين خصصوا أعمارهم
لإنقاذ أنفسهم !

— ولكن أين الجزيرة ؟ إني لا أرى شيئاً !
— هناك إذا تفضلت فاتبعت اتجاه يدي ...
أترى تلك السحابة الصغيرة ؟ انظر ما تحتها إلى اليسار
قليلاً . تلك البقعة الداكنة هي الجزيرة

ونظر الأسقف في جد إلى حيث كان الرجل
يشير ، ولكن عيذه الضعيفتين ما كانتا تريان غير
الماء يعكس أشعة الشمس

— لا أستطيع أن أراها ، ولكن من أولئك
الزهاد الذين يتحدثون عنهم ؟
فأجابه صياد السمك :

— إنهم رجال مقدسون . اتصلت بي أخبارهم

كان الجو لطيفاً رائقاً ، والريح رخاء طيبة ؛
وكانت السفينة تجري بركبها في اطمئنان وسلام ..
وكان في جملة الحجاج إلى دير « شلو فتسك » أسقف
قدم من « أركانجل » لزيارة ذلك الدير
وكان الركاب قد انتشروا على ظهر السفينة
فبعضهم قد اضطجع ، وبعضهم جلس للأكل ،
وآخرون منهم قد اجتمعوا يزجون فراغهم بالحديث .
أما الأسقف فكان قد نزل إلى ظهر السفينة وظل
يخطر بين جماعات الركاب ، إلى أن استرعت نظره
منهم جماعة ملتفة حول صياد^(١) من صيادي السمك
وهو يتحدثهم ويشير إلى مكان في البحر ... ووقف
الأسقف ومد بصره إلى حيث كان يشير ذلك الرجل
فما وجد شيئاً غير مياه البحر تضطرب تحت أشعة
الشمس ، ودنا الأسقف من المحدث عله يسمع شيئاً
ولكن ما إن رآه هذا حتى رفع قبعته احتراماً
وانقطع عن الكلام ، فرفع الآخرون قبعاتهم أيضاً

(*) هذه القصة وقصص أخرى جمعها مترجمها إلى
الانكليزية على أنها بعض ما يرويه سكان مقاطعة « الفولجا »
في روسيا من قصص شعبية ، تبين نفسياتهم الخالصة من
التكلف والبغض ، وكان « تولستوى » قد ألف أقوال
أولئك السكان فأخرج هذه الأسطورة منها دون أن يزيد
عليها شيئاً أو يخفض منها شيئاً ، أو يضيف عليها تعليلاً
من عنده (المترجم)

(١) لصياد السمك اسم عربي وهو « العركي » فلو استعمله
الكتاب واسطاحوا فيما بينهم عليه لشاع استعماله بين القراء

منذ أمد بعيد . غير أنى لم أحظ بملاقاتهم إلا إلى ما قبل عامين

ثم قص الصياد كيف كان أمره معهم حين ضل في إحدى الليالي ، فقفذه الوج إلى جزيرتهم دون أن يدري . فلما أصبح الصباح وارتاد نواحي الجزيرة أبصر كوخاً من الطين ؛ ورأى فيه شيخاً طاعناً في السن قد وقف بالقرب منه ، ثم خرج اثنان آخران من الكوخ وبعد أن أطمعوه وجففوا أمتعته من الماء ساعدوه على إصلاح قاربه المحطم رهنا سأل الأسقف :

— وكانوا يشبهون ما ذا ؟

— كان أحدهم صغير الجرم ، منحني الظهر ، يرتدى ما يرتديه الكهان ، وكان طاعناً في السن إلى حد كبير ، إذ ما أظنه إلا قد جاوز المائة من عمره حتى أن شعر لحيته كان قد خالطته الخضرة الفاتحة من شدة الكبر ، وكان إلى ذلك باسمًا وضاء الوجه ، كأن وجهه وجه ملك من ملائكة السماء . أما الثانى فكان أطول من صاحبه قامه ، وكان طاعناً في السن أيضاً ، وعليه رداء خلق مما يلبس الفلاحون ، ولحيته كبيرة قد ضربت إلى الصفرة من شدة البياض ؛ وقبل أن أمد لهذا الشيخ القانى يد المساعدة انقلب إلى قاربى فحمله كأن لم يكن قارباً ضخماً بل دلوأ صغيراً بما يحمل به الماء ؛ وكان هذا الآخر حنوناً شقيقاً . أما الثالث فكان طويلاً أيضاً ذا لحية بيضاء كالثلج ، قد امتدت وتشعبت حتى وصلت إلى ركبتيه ؟ وكان متجهماً الوجه عابساً ، بحاجيين غليظين مشرفين على وجهه . وقد لف حول بدنه من الوسط حصيراً فسأله الأسقف قائلاً :

— وهل تحدثوا إليك بشئ ؟

كانوا في أغلب الوقت لا يندسون ببنت شفة ، وإن نطقوا — وقليلاً ما يفعلون — اقتضبوا الكلام فيما بينهم... إن أحدهم ليرمق الآخرين بنظرة واحدة فما أسرع ما يدرك هذان الآخران قصد صاحبهما !

وقد سألت أطولهم : هل كانوا قد استوطنوا الجزيرة من أمد بعيد ؟ فمبس وغمغم شيئاً كالغضب ولكن أكبرهم أخذ يده بين يديه وابتسم فسكن ثائر الطويل وأجابنى الأخير بهذه الكلمات :

— « إن الرحمة والغفران لمن فوقنا ! »

وكانت السفينة اقتربت من الجزيرة حينئذ قليلاً ، فقال التاجر الذى بدأ الأسقف الكلام — أول الأمر — :

— أنظروا يا صاحب السيادة — إن الجزيرة لتبدو الآن واضحة ، قال ذلك وأشار بيده نحوها . ونظر الأسقف فأبصر بقعة دكناء حقاً . — كانت الجزيرة — وبعد أن أطلال إليها النظر غادر مكانه وذهب إلى من بيده « سكران السفينة » فقال له :

— ما تلك الجزيرة ؟

— ليس لتلك الجزيرة اسم ، وفي عرض البحر مثلها كثير .

— أحقاً أن فيها زاهدين قد خلصوا إلى إنقاذ أنفسهم ؟

— إنه ليقال كذلك — يا صاحب السيادة — ولكنى لا أدري حظ هذا القول من الصحة ؛ وكثيراً ما زعم سيادو السمك أنهم شاهدوهم ، ولا ريب في أن ما يقولون محض تخمص وتلفيق !

— أريد أن أنزل إلى تلك الجزيرة وأرى أولئك الرجال ، فكيف السبيل إلى ذلك ؟
— إن السفينة لا تستطيع أن ترسو بجانب الجزيرة ؛ غير أنك تستطيعون الذهاب إليها في قارب ، وخير من هذا أن تكلموا الربان في الموضوع وأرسل في طلب الربان فجاء . فقال له الأسقف :
— أريد أن أرى أولئك الزهاد ، أفلا يمكنني الخروج إلى أرضهم ؟

وحاول الربان أن يقنعه بالمدول عن فكرته قائلا :
— أجل ، إن ذلك في الإمكان ، ولكنه يقتضينا وقتاً جداً طويلاً ؛ ولو تجاوزت لقلت لسيادتك إن أولئك الشيوخ لا يستحقون كل هذا المطف منكم عليهم . إنهم مجانين خرفون ، لا يعمون مما يقال لهم شيئاً ولا يفهمون ؛ ثم إنهم لا يزيدون كلمة على الأسماك التي في البحر — إن كان للأسماك حديث ! —
غير أن الأسقف اتى مصرأ على رأيه ، مقررأ أن يرام ، وتعهد أن يوضحهم عن كل ما يخسرون .. فلم يكن مما أراد بد ، وصدرت الأوامر إلى الملاحين بتوجيه السفينة إلى ناحية الجزيرة ، واتخذت لذلك التدابير ... وجي بالكرسي فوضع في صدر السفينة ليكون مجلس الأسقف عليه يرقب الجزيرة . وكان الركاب بجمعهم قد تجمعوا هناك فكان ذوو البصر الحاد منهم يرونها وصخورها ، ثم الكوخ الذي فيها ، حتى استطاع أحد المشاهدين أخيراً أن يبصر الرجال الثلاثة أنفسهم .

وإذ ذاك جاء الربان بمنظار وبعد أن مد فيه بصره سلمه إلى الأسقف قائلاً :
أولئك هم حقاً ، قد وقفوا على الساحل .. هناك إلى يمين تلك الصخرة الكبيرة قليلاً . وسلم المنظار إلى

الأسقف ، وبعد أن مد فيه هذا بصره رأى الرجال الثلاثة — الطويل ، فالأوسط ، فالقصير المنحني الظهر ، وقد وقفوا على الساحل متماسكين بأيديهم . وهنا التفت الربان إلى الأسقف قائلاً :

— إن السفينة لا يمكنها أن تتقدم إلى أكثر من هذا يا صاحب السيادة فتفضلوا فاركبوا زورقاً يوصلكم إليها إن شئتم ، بينما نرسل هنا في انتظاركم وألقيت المرساة ، وأنزل الشراع ، فعمت من ذلك — السفينة حركة اهتزت لها ، ثم سكن اضطرابها فأنزل إلى البحر قارب ركه بعض الملاحين وهبط الأسقف إليه معهم واتخذ مكانه فيه . ثم جند الرجال فجري بهم الزورق سريعاً نحو الجزيرة ؛ ولما وصلوا إلى ممر بين الصخور رأوا الشيوخ الثلاثة : طوبلهم بحصيره التي التف بها ، ثم الذي يليه في ثوب خلق من أثواب الفلاحين ، ثم أقصرهم ، وأصغرهم حجماً : محني الظهر كبيراً ، وقد لبس ثوباً مما يرتديه النساء وكان بعضهم ممسكاً بأيدي بعض .

وتقدم اللاهون من الشاطئ واقربوا منه ، فربطوا القارب به بينما صعد الأسقف إلى البر . وانحني له الشيوخ الثلاثة ، فحيام بمثل تحيتهم وقال يخاطبهم :

— لقد تراءى إلى أنكم رجال أتقياء ، تعيشون هنا لتخليص أنفسكم وإخوانكم الناس بالضرع إلى سيدنا المسيح . . وأنا خادم غير ذي بال من خدمه دعني العناية الإلهية إلى إرشاد عباده ، وقد جئت لأراكم وأعلمكم ما أستطيع أيضاً . . فتبادل الرجال الثلاثة النظر بينهم وابتسموا ولكنهم لم يلمحوا جانب الصمت . ثم قال الأسقف :

فأعاد أولهم الجلمة الثانية صحيحة ولكن الثاني تلمس بها ، أما الثالث فقد أخطأ ، إن الشعر كان قد نما حول فمه بحيث ما كان يستطيع أن يقول شيئاً بوضوح . وصاحبه الذي قبله : فقد كانت للسنين الطويلة أسقطت كل أسنانه بحيث لم يكن في مقدوره أن يعضغ طعاماً أو أن يقول شيئاً إلا غمغمة لاتبين !!

وأعاد الأسقف الكلمات ثانية فكررهما بعمده الزهاد . . . ثم إنه جلس على صخرة كانت هناك حبال الثلاثة الذين كانوا يرقبون فمه ، ما يصدر من قول إلا أعادوه .. وعمل الأسقف طيلة ذلك النهار ، يقول الكلمة . . . المرة والمرتين . . . والعشرين والثلاثين ، بل ربما قالها للمرة المائة أو تزيد ، فبعيدها الشيوخ الثلاثة بعمده فاذا أخطأوا أعاد عليهم وأمرهم بإعادة الكلمة من جديد .

ولم يفادهم الأسقف حتى علمهم كل صلوات الله بحيث أصبحوا قادرين على إعادتها بأنفسهم — لا كما بدأوا يبيدونها بعد سماعها من فمه — وكان أول من تعلمها وتمكن من إعادتها بنفسه : أوسطهم ، فكان الأسقف يأمره بإعادة تلاوتها مراراً حتى تعلمها أخيراً منه الاثنان الآخران ... وكان الظلام قد جثم على المكان وطلع القمر يريق أشعته على مياه البحر حين أوشك الأسقف أن يفاد الزاهدين إلى السفينة ؛ فسجد له الشيوخ شاكرين ، فأنهضهم وقبلهم واحداً بعد واحد ، وحشهم على اتباع تعاليمه في أداء الصلوات ؛ ثم استقل القارب إلى السفينة . وكان وهو في القارب متجهاً إلى السفينة تطرق آذانه أسوات الثلاثة مرتفعة في هدوء بالترانيل التي علمهم ، ثم انقطعت أصواتهم عنه حين بلغ (٥)

— خبروني ما أنتم فاعلون لا تقاذ أنفسكم ، وكيف تخدمون الإله على هذه الجزيرة ؟؟ فنظر أوسطهم إلى الكبير وتنفس الصعداء . فابتسم الأخير وقال يخاطب الأسقف :

— لاندري كيف نخدم « الرب » إنما نحن نخدم أنفسنا وتتهمدها

— وكيف تصلون لله ؟

— إنما نصلي هكذا :

« أنتم ثلاثة

« ونحن ثلاثة .

« فارحمونا ! »

ولما قال الشيخ ذلك رفع الثلاثة أبصارهم إلى السماء وكرروا الجلمة فتبسم الأسقف .

— إنكم على ما أرى قد سئتم عن « الثالث القدس » ولكنكم لا تؤدبون صلواتكم على الوجه الصحيح ؛ وأراكم أيها الأحبة تسمون إلى إرضاء بارتكم ولكنكم تجهلون الوسيلة إليه . فتعالوا أعلمكم طريقة الله التي أوصى عباده باتباعها فيما أنزل من كتب وأسفار مقدسة . وبدأ الأسقف يشرح للزهاد كيف جاء المسيح هادياً للناس ، ثم حدثهم شيئاً عن « الأب والابن والروح القدس » فقال :

— وقد نزل « السيد الابن » إلى الأرض

لينفذ الانسان ، وعلينا أن نصلي هكذا . أصغوا ثم أعيدوا بعمدي ما أقول :

— يا أبانا . . .

فقال أولهم « يا أبانا » وقال الثاني مثل قول الأول ثم أعاد الثالث قوليهما .

— .. الذي في السماء ..

جداً فما أسرع ما أدركتنا؟ لا، ليست هذه مركبا
إذ ليس لها شراع - ولكنها مع ذلك جادة في اقتفاء
أثرنا! - ولا هي من الطير ولا الأسماك؟ ثم إنها
أكبر من رجل! وأنى لرجل أن يترلق على الماء
في وسط البحر؟

ونهض الأسقف فخير «مدير الدفة في السفينة»
- أنظر إلى هناك . ما ذاك يا صاحبي؟ أي
شيء هو؟

... إنه يرى الزهاد الثلاثة يركضون على الماء
وضاحة وجوههم، مشرقة طلعاتهم وقاربوا السفينة
حتى لسكانها قد وقفت عن السير!
ونظر الربان فترك إدارة السفينة مذعوراً:

- يا إلهي ... أولئك هم ثلاثهم يركضون
خلفنا كما لو كان وجه الماء أرضاً صلبة! وسمعه
الركاب فهرعوا وتجمهروا حوله ... ماذا يرون؟
إن الزهاد ثلاثهم قد أقبلوا وأيدي بعضهم تمسك
بعضاً ... فأشاروا إلى السفينة أن تقف، وقبل أن
تتمكن السفينة من التوقف عن السير وصلوا إليها
ورفعوا رؤوسهم قائلين بصوت واحد:

- لقد أنسينا تلاميذك يا عبد الله . إنا منذ أن
تعلمناه بدأنا بتكراره، ولكن سقطت منا كلمة ...
ثم إنا نسيناه كله الآن فعلمنا تارة أخرى!
فاتجه الأسقف إليهم وانحنى يخاطبهم:

- إن الله ليتقبل صلواتكم التي كنتم تتوجهون
بها إليه! ليس لي أن أعلمكم شيئاً، بل صلوا من
أجلنا نحن المذنبين!

وانحنى لهم، فرجموا من حيث أتوا ...
واختفوا عن النظر، ولم يبق من آثارهم غير
شعاع كان آتياً من حيث اختفوا حتى أشرق
ضوء النهار! فمرى شراب السمير

السفينة، وأما منظرهم في ضوء القمر فكان بيناً
واضحاً يستطيع أن يستجليه بوضوح ويسر. ذاك
أقصرهم قد وقف في الوسط والاثنان الآخران قد
وقف أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره.

وما أن وصل الأسقف للسفينة حتى رفعت شراعها
وأقلمت، فهبت الريح رخية، واستأنف السير.
... جلس الأسقف في مؤخرة السفينة بقرب
«سكانها» يراقب الجزيرة التي أقلموا منها ... كان
يرى - أول الأمر - الزهاد الثلاثة ثم اختفى
منظرهم عنه، فبقي غير الجزيرة ولكن هذه اختفت
أيضاً فلم يبق أمامه غير البحر تضطرب أمواجه تحت
أشعة القمر.

وأوى الحجاج إلى فرشهم فخلا ظهر السفينة
إلا من الهدوء التام؛ أما الأسقف فلم تكن في نفسه
إلى النوم حاجة، ولكنه ظل حيث كان يحدق
في البحر، في المكان الذي اختفت فيه عن ناظره
الجزيرة، مفكراً في أولئك الشيوخ الثلاثة ... لقد
كانوا ممتنين بما علمهم؛ فشكر الله على أن أرسله
ليهدى أمثال هؤلاء للنقا البررة!

ظل الأسقف جالساً في مكانه كذلك يفكر
في هذا ومثله يحدق في تلك الذاحية التي غاب منظر
الجزيرة فيها وضوء القمر بتلألاً أمام عينه يداعب
أمواج البحر هذه مرة وتلك مرة، وإنه لذلك إذ
بصر فجأة بشيء أبيض مشرف يظهر على موقع قراء
البدر من البحر ... أترأ طيراً من طيور الماء؟ أم
هو شراع إحدى المراكب الصغيرة؟ وأثبت الأسقف
فيه بصره ما يحوله عنه ... لا بد أن يكون شراع
إحدى السفن الصغيرة تجري وراءنا ولكني أراها
تتبعنا سريعاً، لقد كانت منذ لحظة بعيدة، بعيدة